النزاع على قادش

بين المصريين والحثيين

بقلم الامير موريس شهاب امين دار الآثار اللبنانية

توطئة

كانت البلاد السورية مطمحاً لآمال فراعنة مصر ، وكانوا ينازعونها الحثيين. امّا اهل البلاد فكان الشماليون منهم يميلون لملوك الحثيين ويساعدونهم على المصريين ؛ واهل الجنوب والشطوط البحرية تحت سيطرة المصريين.

فاذا قام في مصر فرعون كبير ، اكتسح البلاد السورية ، وطرد الحثيين وحلفاءهم منها ؛ ولكن اذا ضعفت سيطرة ملك مصر ، انتهز ملوك سورية الفرصة للحصول على استقلالهم ، وساعدهم على ذلك ملك الحثيين طمعاً بالاستيلاء على البلاد ، متى نُزعت عنها سلطة ملوك مصر.

ولذلك اصبحت سورية الوسطى ميدان قتال الجيشين ، يحتلّها من انتصر من العدوّين. وكانت المعارك تدور عادة حول بلدين : مجدّو جنوباً ، وقادش شمالاً.

امّا مجدّو[1] فتقع جنوبي الكرمل ، عند مضيق لا بدّ للجيوش المصرية من عبوره ، اذا قصدت سورية الوسطى برّاً . وامّا قادش فهي مدينة تقوم في سهول البقاع ، بين مجدّو وحماه ، وهي على مفرق طرق يمرّ به الفاتحون من ايّ جهة اتوا. وقد جهل الاثريون مدة طويلة المكان الذي قامت فيه قادش ، ولم يتمكنوا من تأكد موضعه الّا من زمن قريب.

1) اسمها اليوم « تلّ المتسلّم »

معركة مجدّو

وقادش بلد قديم نجهل كثيرًا من تاريخه . وجلّ ما نعلم عنه هو مـا اخبرتنا به حوليّات فراعنة مصر التي تعدّد انتصاراتهم في البلاد السورية.

وقد اكتسح الفرعونان توتميس الاول ، وتوتميس الثاني ، البلاد السورية ولم يـأتيا على قادش بذكر . ولكن لم يمض على فتحهما نحو النصف قرن حتى اصطدم بجيوش ملك قادش ، اكبر الفـاتحين المصريين ، توتميس الثالث ، عند حصاره لمجدّو.

وفحوى الخبر ان توتميس الثالث ، عند وصوله الى شمالي البلاد التي تدعى الآن فلسطـين ، سمع ان قوى عديـدة تألبت حول ملك مجدّو للوقوف في وجه المصريين ومنعهم عن دخول سورية الوسطى . وعلم ايضاً ان اكثر هذه القوى تحت امرة ملك قادش ، وقد كان ملك مجدّو استفزّ حميّته ، فجمع كل ما جاوره من الملوك واسرع الى نجدته.

وما علم توتميس الثالث بالامر الّا جمع قوّاده في مجلس ، وعرض عليهم خطورة الحال ، وطلب منهم المشورة . فاشار عليه القوّاد ان يتبع سبيلًا واسعاً اعتاد الفاتحون طرقه ، وان يهاجم معسكر الاعداء الذين ينتظرونـه بالقرب من مخرج السبيل . ولكنّ توتميس كان على غير هـذا الرأي . وقد فضّل ان يطرق مضيقاً حرجاً لا يمكن الجيش عبوره بانتظام ، وان يهاجم الاعداء من حيث لا ينتظرونه. فعارضه القوّاد في الرأي معارضة شديدة نظرًا لضيق الممرّ ، وخطورته ، لو احسّ الاعداء بان الجيش المصري يمرّ فيه. ولكنّ الفرعون تشبّث برأيه وامر القوّاد بالاذعان لامره ، ففعلوا مكرهين.

وفي تشبُّث الفرعون برأي كهذا لنـا الدليل على ما كان لتدخّل ملك قادش من التأثير في قلب فاتح كبير يتألّب حوله جيش عرمرم. فلو لم يحسب فرعون مصر لجيش الاعداء حساباً كبيرًا ، لما خاطر بحياة رجاله ومرّ بهم في ذاك المضيق.

وقد نجحت حيلة الفرعون كلّ النجاح . ولم يرَ الاعداء طلائع جيشه حتى

ولوا الادبار، تاركين ما في معسكرهم من الذخائر النفيسة . وقد جزع اهل مجدّو كل الجزع، واقفلوا في وجه الفارّين ابواب مدينتهم وتحصنوا فيها . ولم يسع ملك مجدّو وملك قادش دخول المدينة الّا بتسلّقهم حبالًا ادلى بها اهل البلد من اعالي السور . وقد صاح الفرعون بجنده يحرّضهم على ملاحقة العدوّ قبل دخوله المدينة. ولكن انّى له ان ينصتوا الى اوامره، بعد ان ترك العدوّ امامهم مـا لا يحصى من الغنائم . واذ فاتت المصريين الفرصة، لم يتمكن الفرعون من الاستيلاء على البلد الّا بعد حصار طال بضعة اشهر . وقد وصف الفرعون وصفاً طويلًا خيام ملك قادش وما طرزت به من الفضة، وعمد الخيام المطلية بالفضة والذهب. وعند استيلائه على المدينة استسلم له ملكها، وملك قـادش، فوصف الفرعون وصفاً دقيقاً مـا اتشح به الملكان من الملابس الفاخرة، وما حملاه من الاسلحة الثمينة المحلّية بالمعادن النفيسة، وما رصّعت به عجلاتهما من الذهب الخالص.

قادش في يد المصريين

وعاد الفرعون الى بلاده بعد ان استولى على مدن عديدة تدين لملك قادش. ولم ينتهِ الفرعون من حملته هذه حتى شنّ الغارة مرّة ثانية على سورية الوسطى، وقد اتخذ من الاحتياط ما جعل النصرة في جانبه . فكانت موانئ البـلاد الفينيقية حليفة له، فاستخدمها لجلب الذخائر والرجال من مصر . وكانت حملته هذه نحو سنة ١٤٦٩ ق. م. وقد عاود الكرّة مرارًا على قادش، فاستولى عليها، واعمل الذبح والنهب في اهاليها واراضيها فدمّر ما لها من جاه وسطوة، وانزل الرعب في قلوب حلفائها واتباعها فدانوا لـه . وكانت الغلبة على قادش قاضية على استقلال البلاد، فعاشت سورية الوسطى اكثر من قرن تخضع لسلطة المصريين، وقد ساد فيها السكون وعاد اليها السعد. وحفظاً للسيطرة المصرية، شيّد توتميس وخلفاؤه قلاعاً يسطو منهـا الجند المصري على قادش ومجدّو، اذا اتتا باقل حراك ضدّ الفرعون.

ونحو سنة ١٣١٠ قام الفرعون ستي الاول يجتـاح ما تقلّص من البلاد عن

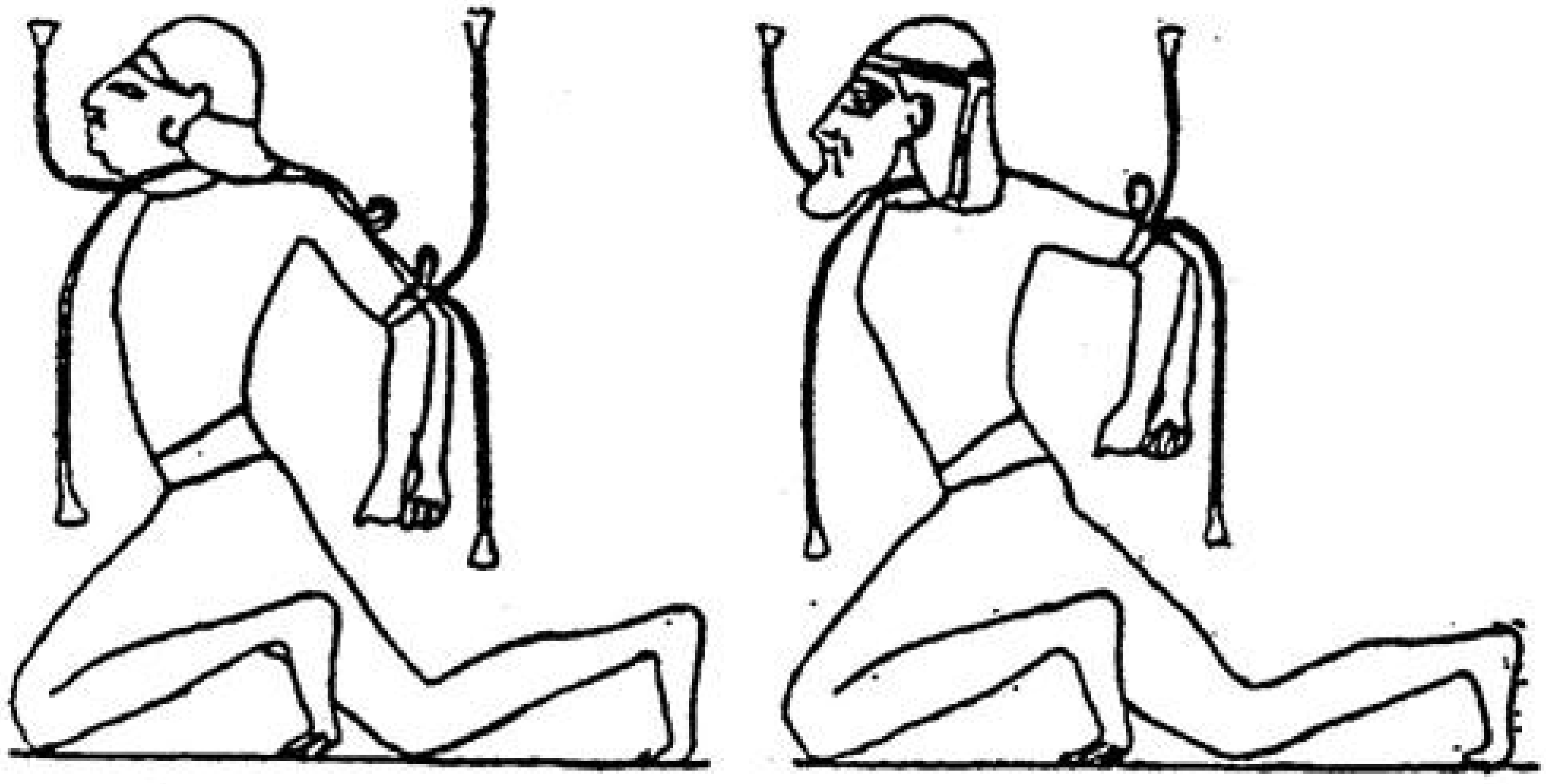

الرسم ١ : اسير حثي واسير سوري في قبضة سيتي الاول

سيطرة المصريين ، فاحتلّ قادش واقام فيها نصباً باسمه . ويمثل هذا النصب الفرعون سيتي ، وهو يستلم صولجان النصر من اله مصر امون ، مع خلف الاله امون ، الاله مونتو ، وهو اله عاصمة المصريين ، وبعض الالهة الاسيوية. وقد وجد قسماً من هذا النصب العالم الاثري پيزار (Pézard) ، فارسل الى متحف دمشق ، وعندنا ، في متحفنا ، قالب من الجفصين اخذ عنه.

قادش في يد الحثيين

ولم تبقَ المدينة زمناً طويلاً في حوزة المصريين بعد سيتي ، لان الحثيين عادوا فاحتلوا البلاد وطردوا منها جيوش مصر.

وكان الحثيون قد وصلوا الى اوج سلطانهم واصبحت منازعتهم البلاد السورية شاقّة للغاية ، وقد جعلوا لهم فيها حلفاء امناء كملك حلب ، وغيره من ملوك سورية الشمالية.

وقد يتساءل البعض عن حدود المملكة الحثية وعن اصل الحثيين . امّا الحثيون فهم شعب غير ساميّ ، مجهول الاصل ، ، اقام من زمن بعيد في آسية الصغرى . وكانت اهمّ عواصمه على النهر الذي يدعى الآن كيزيل ارمك ، وعاصمته خاطوسية شمالي القيصرية . وكانت للحثيين عاصمة اخرى

كبيرة على ضفاف الفرات ، تدعى كركميش ، وهي جرابلس الحالية . وفي منتصف القرن العشرين ق. م. هاجم الحثيون البلاد الكلدانية واحتلّوا بابل ، واعملوا في بعض احيائها الخراب ، لكنهم لم يقيموا فيها زماناً بل نزحوا عنها وعادوا الى جهات كركميش . وحين هاجر ابراهيم الخليل من اور كشديم ، تبع مع قافلته مجرى نهر الفرات ، حتى وصل الى البلاد الحثية وبقي في حران مدة ، وقد دفن فيها اباه .

وما زال الحثيون يوسعون نطاق حكمهم حتى احتلّوا معظم آسية الصغرى ، واصبح سلطانهم وطيد الاركان فيها . فاتجهت مطامحهم الى سورية وهي مطمع كلّ فاتح ، فنازعوها المصريين القرون الطوال . وحين ملك في مصر الفرعون امنحوتب الرابع ، وألهي عن سياسة مصر الاستعمارية مكافحاً في سبيل ديانة الاله « الشمس » ، انتهز الحثيون فرصة الاضطرابات الدينية للقضاء على نفوذ المصريين في سورية ، فصاروا تارة يحتلّون البلاد بالعنف ، وتارة يتحالفون مع بعض ملوكها ، ويمدّونهم بالاسعاف ضد انصار الفراعنة . وقد دمّروا قطنا-المشرفة واحرقوا معبدها في ذاك العهد .

وما عادت المياه الى مجاريها في مصر بعودة الفرعون توت عنخ امون الى عبادة الاله امون ، حتى قام بعده الفرعون سيتي وطرد الحثيين من بعض ما احتلّوا من البلاد ، وفي طليعتها قادش حيث اقام نصب النصر الذي مرّ ذكره .

ولكن انّى للفرعون المصري ان يثبت سلطانه في بلاد مقيمة له على عداء صميم ، بعد ان انزل فيها الخراب . فلم يعد سيتي الى مصر حتى قامت البلاد ثائرة على جنده ، وعادت اليها جيوش الحثيين موالية او فاتحة .

رعمسيس الثاني والحثيون

معركة قادش

على ان الفرعون رعمسيس الثاني صمّم النية على بتّ الامر بينه وبين الحثيين ، وطردهم من البلاد طرداً نهائياً . فجنّد جيشاً عديداً مدرّباً ، وحمل به على

سورية الوسطى. وقد تبع رعمسيس في زحفه طريق السواحل ونصب له معسكراً على القرب من بيروت. ثم نقش نصباً على صخور نهر الكلب، واكتسب صداقة ملك جبيل اخيرام، بعد ان اهداه اناء من حجر الشطوط (*albâtre*)، ورمّم او بنى معبداً لآلهة جبيل. وقد حفظت الايام هديّته، وباب معبده، وهما الآن في متحفنا الوطني في بيروت[1].

ويظن بعض العلماء ان رعمسيس تبع في زحفه على قادش وادي نهر الكلب. ولكن ذلك يقارب المحال، والارجح انه اتى قادش من وادي النهر الكبير شمالي طرابلس.

ولم يكن رعمسيس عالماً ان الحثيين وصلوا الى قادش، بل كان يظنّهم في سورية الشمالية، لان اسيرَين منهم اكدا له ذلك. وجازت عليه الحيلة، فترك معظم الجيش في مكان يدعى شبطونا، وتقدم مع اركان حربه الى سهول البقاع، حتى وصل على مقربة من مدينة قادش. واذا بجنوده يأخذون اسيرين اخرين. فخامره الشك بالامر، واستخبرهما، وبعد ان نكّل بهما اقرّا انهما اتيا ليستطلعا طلع جيشه، وان ملك الحثيين، موتالو، وملك كودي، في كيليكية، وملك حلب، قد استتروا مع جيوشهم وراء تلّ قادش.

وقد وصف رعمسيس قادش وصفاً مبهماً، فقال عنها انها على تلّ تحيط به المياه من كل جانب، فهي اشبه بالجزيرة.

ولم يعلم رعمسيس الحقيقة، حتى صاح بقواده مؤنّباً لتهاملهم في استطلاع حالة العدو، وقد علت في السهل غبار عجلاته. لان العدو في ذاك الحين هاجمه ليغدر به. وكان رعمسيس في اشد بأسه فارتدى بسرعة ملابسه الحربية، وامتطى عجلته، وهجم على الاعداء هجوم الليث ممطراً عليهم وابلاً من السهام. وحين رأى الجند مليكهم آتياً لنجدتهم زال جزعهم، وقاموا

---

١) الاناء معروض في خزائن المتحف. اما الباب فسنجعل له عن قريب مكاناً في الغرف المفتوحة للزوّار، وقد نقشت على حجارته رسوم تمثل الفرعون، واسمه مكتوب بالاحرف الهيروغليفية، وهو من اكتشافات هذه السنة.

ينصرونه ، بعد ان كانوا اخلوا قسماً من المعسكر ، واوشكوا ان يلوذوا بالفرار .

وكان رعمسيس ارسل ساعياً لباقي جنوده يستعجلهم اليه . فلم يطل الامر حتى وافته ، في طليعة الجيش ، فرق من شباب الاموريين ، اي اللبنانيين ، الذين تجندوا في جيشه . فتمكن عند ذاك من التملص من ايدي الاعداء ، والكرّ عليهم ، ودارت رحى المعركة اكثر من نهار ، وكانت من اعظم المعارك المعروفة في التاريخ القديم . (الرسم ٢)

الرسم ٢ : رعمسيس الثاني في المعركة

وفاز الجيش المصري على جيش الحثيين ، فاكرههم على الهزيمة . واغرق منهم عدداً عديداً في مياه النهر . ويمثل احد النقوش المصرية التي نقشها رعمسيس على جدران معابده في مصر ، ملكَ حلب ، وقد قلبه جنده رأساً على عقب ، ليفرغ ما ابتلعه من المياه ، بعد ان انتشلوه من النهر (الرسم ٣) . ومع شدة المعركة ، لم يتمكن رعمسيس من الغلبة على الحثيين بصورة نهائية . فعاد اليهم مراراً في السنين التالية وقد يئس الفريقان من احراز النصر .

وما مضت بضع سنين حتى جرت بين المليكين مخابرات صلحية ، فتقرر ان تكون سورية حتى جنوبي قادش للحثيين ، وان تبقى فينيقية مع ما بقي من سورية تحت سيطرة المصريين . وختم الملكان عقد التحالف ، ونقشا شروط

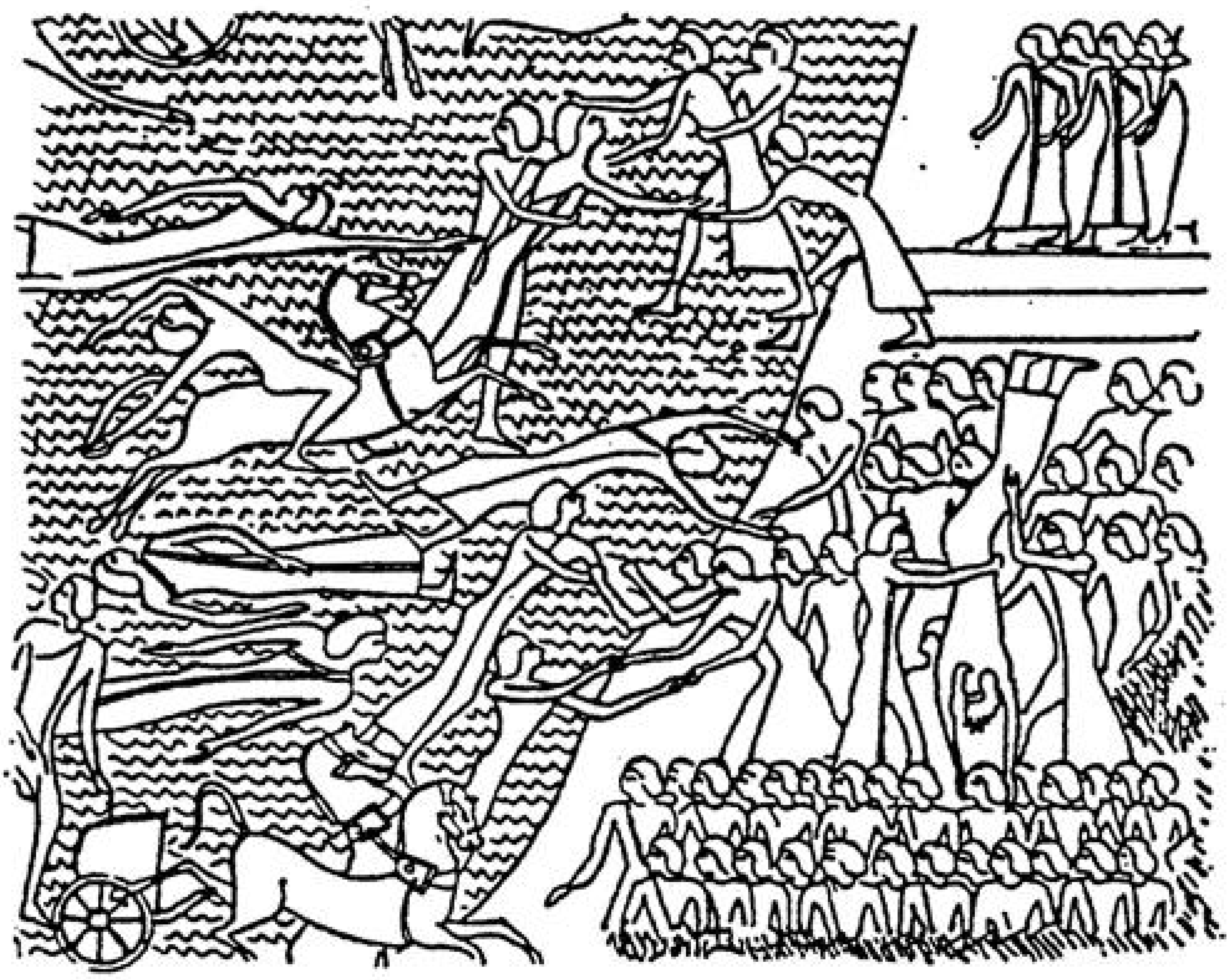

الرسم ٣ : جيش الرديف الحثي يخلّص الهاربين من المعركة على شاطئ العاصي ومنهم ملك حلب ، مقلوباً رأساً على عقب ، ليفرغ ما ابتلعه من الماء

الصلح على صفائح فضية وضعاها كلٌّ في معبد الهته . وانقلبت عداوتهما الى صداقة متينة ومحالفة ضد كل خصم . ثم طلب رعمسيس الثاني يد ابنة ملك الحثيين ، فاتاه بها والدها حتى بلاد مصر ، فاقام له الفرعون مهرجاناً عظيماً واستقبله بحفاوة نادرة ، فعدّ الشعب المصري مجيء ملك الحثيين الى ديارهم كخضوع لفرعونهم .

موقع قادش

وقد تساءل علماء الآثار مراراً عن موقع ذلك البلد العظيم ، الذي بقي مدة ثلاثة قرون ملتقى الجيوش ، فظنوه اولاً في جزيرة التين القائمة وسط بحيرة حمص . ولكن بعد التنقيب لم يظهر لهم فيها سوى آلات ظرّانية تدل على انها كانت مسكناً للبشر قبل التاريخ . ولكن لم يظهر لهم فيها شيء مهم من العهد التاريخي . فاتجهت انظار بعضهم الى اكبر تلٍّ في ضواحي البحيرة

وهو جنوبيها ، يمرّ نهر العاصي شرقيه وتنسل منه ساقية عريضة تمر غربي التل ، فيصبح كجزيرة . ويدعى هذا التل تل النبي مند . وقد زرته من عهد قريب برفقة الاثري الشهير الاب رونزفال ، الذي كان من اكبر مؤيدي الفكرة القائلة بانّ قادش قامت على هذا التل . وموقعه على جانب مهم من الوجهة الحربية ، اذ انه عند مفرق طرق : فهو شمالي مدخل البقاع ، وشرقي مدخل الوادي الذي يؤدي الى النهر الكبير والساحل ، وجنوبي اراضي حماة وحمص ، وغربي الطرق المؤدية الى تدمر والبادية .

ويستطيل التلّ من الشمال الى الجنوب ، وقد علا عن سطح السهل نحو الثلاثين مترًا . وطوله نحو الكيلومتر .

وقد ارسل مؤخرًا معهد الآثار الفرنسوي بعثة علمية لحفره والتنقيب فيه . وكانت هذه البعثة تحت ادارة اثري شاب يدعى پيزار . فاعمل الحفر في الجهة الشمالية - الشرقية من التلّ ، وعثر على القسم الاعلى من النصب الذي اقامه الفرعون سيتي في اواخر القرن الرابع عشر ق . م . وعثر ايضاً على آثار البلد في عهد الرومان واليونان ، ويمتدّ عمقها نحو العشرة امتار تحت سطح الارض . ثم وجد تحت هذه الآثار بعض بقايا لسور المدينة من القرن التاسع ق . م . تقريباً . ولكن مرضاً عضالاً اصابه وقت الحفريات ، اودى به بعد سنتين من الحفر ، ولم يدع له الوقت لنشر معلوماته ومتابعة حفرياته . ولا يزال تلّ النبي مند يطوي في جوفه آثار قادش ، وقد محى الزمان حتى ذكراها في تلك الاماكن . وكان العرب يعلمون في الاجيال المتوسطة ان قادش لم تقم بعيدًا عن هناك ، اذ دعوا بحيرة حمص بحيرة قدس ؛ وكأنّ طاحونًا صغيرًا على جنوبي التلّ ابى الّا حفظ ذكرى البلد القديم فما زال حتى الآن يُعرف بطاحون قدس .